

محمد محمود الزبيرى المناضل الشهيد

كتب يوماً يقول:

(ومهما يكن الأمر فإن الحقيقة الواقعة أن الشعر هو الذى أخرجنى من القمم وقادنى إلى غمار الحياة الواسعة الزاخرة بالمفارقات والمتناقضات).
ولقب شاعرنا بألقاب مختلفة منها: أبو الأحرار.. الزعيم الوطنى.. المناضل الشهيد.. المجاهد الأكبر.

أما سيرة حياته.. فقد ولد محمد محمود الزبيرى فى صنعاء عام 1918 من أسرة تنتمى إلى الطبقة الوسطى ويشغل بعض أفرادها بالقضاء والبعض الآخر بالتجارة.

وقد نشأ الزبيرى نشأة دينية.. فقد كان طالب علم ينحو نحو الصوفية.. والروحانية.. وعشق هذا اللون من الحياة الذى يتسم بالشطف وقلة الزاد.. والفقر والتقشف.

ويخرجه الشعر - على حد قوله - من هذه الدائرة المغلقة إلى دائرة الحياة الواسعة.. وفى ذلك يقول مخاطباً الشعر:

حملتني آلامها ودموعها

ومنعت عنى وصلها ومنعتها

ناديت أشتات الجراح بأمتى

فجمعتها فى أضلعى وطبعتها



ما قال قومي: أه إلا جئتي

فكويت أحشائي بها ولسعته

وبالطبع كانت الطبقة التي ينتمي إليها الشاعر بعيدة عن الثقافة تعيش
بمنأى عن إمكانية التغيير.

لكن الزبيرى تخلى عن طبقته وانخرط في صفوف الشعراء الذين التزموا
قضايا المجتمع بعيدا عن الجمود والتخلف.

واصطدم الزبيرى ورفاقه بعصر الإمام يحيى.. فكان بداية معاناته..

وقد عرف الزبيرى السياسة وهو طالب في كلية دار العلوم بالقاهرة
وعاد إلى اليمن حاملاً تلك الأفكار الثورية التي تنادى بالتنوير من خلال
جمعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي أسسها بعد عودته.. ويقبض
على الزبيرى وأعضاء جمعيته.. ويودعون السجن ويلاقون التعذيب.

لكن الزبيرى استطاع أن يفر من صنعاء إلى عدن - عاصمة الجزء المحتل
من البلاد آنذاك - ونجح مع بعض رفاقه في تكوين أول عمل صحفى
للتعريف بأحوال مملكة الإمام يحيى.. ودعوة الشعب إلى الثورة والقضاء
على هذا النظام المتخلف.

وتنجح دعوة الزبيرى وفي ذلك يقول:

كفرت بعهد الطغاة البغاة

وما زخر فوه.. وما زيفوه

وأكبرت نفسى عن أن أكون

عبدا لطاغية توجوه



وعن أن يرانى شعبي الذى
يعذبّ عوناً لمن عذبّوه

ثم يقول:

سأقضى عيداً فلا أنثى
وأحيا كريماً فلا أنحى
وأرفع نحو السّما جهتى
كما ارتفعت جهة المؤمن
وينتفض الشعب اليمني ويطيح بالإمام يحيى فيكتب الزبيرى:
الملايين العطاش المشرّبة
بدأت تقتلع الطاغى وصحبه
سامها الحرمان دهر لا يرى
الغيث إلا غيظه والسحب سحبه
ها هو الشعب صحا من خطبه
بينما الطغيان يستقبل خطبه

ويصير الزبيرى وزيراً فى حكومة الانقلاب الأول.. ولأنه كان فى طليعة
الثائرين بشعره ومواقفه.. فقد كان فشل الانقلاب يعنى له الإعدام.. لكنه
سلم من ذلك.



ويذهب الزبيرى إلى السعودية ضمن وفد يمى للتباحث مع وفد الجامعة العربية برئاسة عبد الرحمن عزام.. لكن الزبيرى أحس أن السعودية تعمدت تأخير وفد الجامعة فى الأراضى الحجازية حتى يكتمل الحصار من حول الانقلاب الوليد.

وحين يئس الزبيرى من إثناء الملك السعودى عن موقفه قرر هو ورفاقه سرعة العودة إلى صنعاء.. لكنهم فوجئوا بسقوط المدينة فى أيدي البرابرة.. وكان على الزبيرى أن ينجو بنفسه.. وهنا تبدأ حياة التشرذم والنفي والغربة الطويلة.

اتجه الزبيرى إلى باكستان ومكث هناك خمس سنوات بكى بها مصرع الرفاق.. وبكى وطنه المقهور:

أضلنى وهم شعرٍ كنت أنسجه

سحراً يحول قلب الصخر أليانا

وهالنى شؤم ما استكشفت من جثث

قد كنت أحسبها من قبل تيجانا

فرحت أشعل بالقيثار مقبرة الـ

موتى وأنفض أغلالا وأكفانا

أصبو إلى أمتى حباً وأبعثها

بعثاً وأبنى لها بالشعر بنيانا

أصوغ للعمى منه أعيناً نزع

عنهم وأنسجه للصم آذانا



وما حملت يراعى خالقاً بيدي
إلا ليصنع أجيالاً وأوطاناً
يخاله الملك السفاح مقصلةً
في عنقه ويراه الشعب نيراناً
فهياك يا أمتي روحاً مدلهة
عصرتها لخطاك الطهر قرباناً
كأساً من الشعر لو تسقى الشموس بها
ترنحت ومشى التاريخ سكراناً

وتقوم ثورة 1952 في مصر.. وتفتح أحضانها للشوار العرب في كل
مكان.. وتستقبل الزبيرى فيمن تستقبلهم.. ليعلن الزبيرى قيام الاتحاد
اليمني.

ثم تقوم ثورة 26 سبتمبر ليعود الزبيرى إلى وطنه وزيراً للتربية والتعليم
ثم نائباً لرئيس الوزراء.

وكان الزبيرى يكره المناصب.. لهذا وجدناه يهجر مكتبه ليذهب إلى
الريف مدافعاً عن منجزات الثورة..

حتى سقط مضرراً بدمه في 30 مارس عام 1965.

تلك سيرة حياة مناضل يمني لم يكف لحظة عن المطالبة بالثورة
وإسقاط الرجعية والتخلف.

وكان عندما هاجر إلى عدن قد كتب قصيدته (الخروج من اليمن) يقول

فيها:



خرجنا من السجن شم الأنوف
كما تخرج الأسد من غابها
نمر على شفرات السيوف
ونأتى المنيّة من بابها
ونأبى الحياة إذا دنّست
بعسف الطغاة وإرهاها
ونعلم أن القضا واقع
وأن الأمور بأسبابها
ستعلم أمّتنا أننا
ركبنا الخطوب حنانها
فإن نحن فزنا فيا طالما
تذل الصعاب لطلابها
وإن نلق حتفاً فيا جذا
المنايا تجي خطابها

ويقول الزبيرى فى كتابه (ثورة الشعر):

(إن الشعب كله كان يقدر هؤلاء الحكام.. وكان كل من يملك شعراً
أو نثراً لا يكاد يقدمه إلا مدحاً للإمام أو نجله.. وليس هناك فرق بيننا وبين
الكثيرين إلا أننا تغيرنا ولم يتغيروا.. وثرنا ولم يثوروا.. وقدمنا حياتنا



وشبابنا قربانا فى سبيل الحق.. ومن أجل الشعب مع نفر قليل من زملائنا
وشهدائنا).

ثم يرثى شعبه بقوله:

ما كنت أحسب أنى سوف أرثيه

وأن شعرى إلى الدنيا سينعيه

وأنى سوف أبقى بعد نكبته

حيا أمزق روحى فى مراثيه

وكان الزبيرى حين كتب هذه القصيدة مطارداً فى الهند.. محظورا عليه
المشى والظهور فى الأماكن العامة.. وهى قصيدة طويلة تسوق لنا ذكريات
كثيرة حول الثورة وما قبلها وفيها يقول:

علت بروحى هموم الشعب وارتفعت

بها إلى فوق ما قد كنت أبغيه

وخولتنى الملايين التى قتلت

حقَّ القصاص على الجلاذ أمضيه

عندى لشر طغاة الأرض محكمة

شعرى بها شرّ قاضٍ فى تقاضيه

أحارب الظلم مهما كان طابعه

البراق أو كيفما كانت أساميه



ولابد أن الزبيرى فى منفاه وغربته كان يحن إلى وطنه.. ذلك الوطن
الذى يناضل من أجله.. والذى يتمنى أن يحترق فى أتونه.. وأن يكون أحد
شهداءه..

يتغنى الزبيرى بالحنين إلى وطنه قائلاً:

وطنى أنت نفحة الله ما تبرح

لا عن قلبى ولا عن لسانى

صنع الله منك طينة قلبى

وبرى من شذاك روح بيانى

هاك ما قد طهرته لك من دم

عى وما قد صهرته من جنانى

شعلة القلب لو أذيعت لقالوا

مرّ عبر الأثير نصلُ بيانى

ولم يكن الزبيرى مهموماً بوطنه اليمن فحسب.. لكنه كان يعيش
حركات النضال العربية فى كل مكان.. وكانت قضية فلسطين تأخذ حيزاً
من أشعاره وتفكيره كذلك.

وقد كتب هذه القصيدة تعليقاً على اجتماع الدول العربية فى لندن فى
بداية الحرب العالمية الثانية.. وعلى الكتاب الأبيض الذى أصدره الإنجليز
آنذاك عن قضية فلسطين.. يقول:

يا قادة العرب والإسلام قاطبةً

قوموا فقد طال بعد الصبح نومكم



شيدوا لنا في مساوات العلا حراماً
نطوف حول ثرياه ونستلمُ
متى يرى الانكليزيون ذمتنا
كذمة .. حقها تُرعى وتُحترمُ
حتى متى نشتكى منهم ونسألهم
رفع العذاب فما رَقوا ولا رحموا
هم يدركون بأنا خاضعون لهم
من ذُلنا رغم ما جاروا وما ظلموا
لا نستحق حياة غير ما وهبوا
ولا ننال حقوقاً دون ما حكموا
ثم يخاطب إنجلترا بقوله:
أين العدالة يا أعداء مبدئها
منكم إذا كان غمط الحق دابكمُ
إن الخداع الذى دانت سياستكم
به لأعظم ما تشقى به الأممُ
أضحى اليهود صليباً تعبدونهم
دون الصليب وإن كان العبيدهمُ



فلا برحتم عبيداً لليهود ولا

زالت سياستكم بالذل تنهدم

ويتملك الزبيرى اليأس فى بعض طموحاته وأحلامه.. فيتأوه حزينا لا
يملك إلا البكاء على عمر مضى:

أنا آه تطايرت من حطام الشـ

عب واستكبرت على المستبد

أتقى نابيه ومخلبه العا

تى بلحمى العارى وصدرى وزندى

وبقلب مكبل فى شباك

من صلال ملء الجوانح رُبـدِ

لا قصيدى يزلزل الحائط البـا

غى ولا زفرتى تحطم قيدى

وتصيب رصاصة الغدر قلب الزبيرى لتكفيه هذا الحزن وذلك الأسى
العميق الذى يعمر قلبه وكيانه.. لتطوى صفحة من النفي والتشرد والتمرد
على الواقع.